العرب
الثلاثاء 2020/01/07
السنة 42 العدد 11579

إيران: رد الحقد أم رد الحرب؟

علي الصراف
كاتب عراقي

يرى "الولي الفقيه"، وحكومته وميليشياته، حقيقة ساطعة، هي أنهم يقفون على أبواب هزيمة منكرة. وأنهم إذا اختاروا الرد على مقتل "الرجل الثاني" في النظام، قاسم سليماني، فإنهم سوف يتلقون ردا ساحقا من جانب الولايات المتحدة.

هناك رهان واحد تستطيع إيران أن تعوّل عليه، هو أن حجم القوات الأميركية في العراق والمنطقة ليس بالسعة التي تسمح بخوض حرب أو غزو إيران.

ولكن من قال إنّ واشنطن تريد أن تغزو إيران؟ ومن قال إنّ انهيار النظام فيها يتطلب مليون جندي؟ ومن قال إنّ الهزيمة يجب أن تكون عسكرية دائما؟

لقد شرب "ولي فقيه" سابقا كأس السُمّ وقَبِل الهزيمة حيال جيش أقل قدرات منَ الولايات المتحدة. ويعرف خامنئي أن نظامه لن يصمد أسبوعا إذا ما اندلعت حرب.

يستطيع هو وأتباعه، أن يهدد بضرب القواعد الأميركية، أو أن يحرّك مأجوريه وعملاءه لكي يطلبوا رحيل القوات الأميركية من العراق، وأن يعدها، بـ"خروج مذلّ"، ولكنه يعرف أن الغوغائية شيء، والخسائر التي تملى على الأرض شيء آخر. النظام الإيراني يمكن بسهولة أن يسقط من تلقاء نفسه.

أولا لأنه مكروه من جانب شعبه، ولأنه ارتكب فيه من الجرائم ما يكفي لكي ينتظر الناس سقوطه ومحاكمة رموزه، بل وأن يذهبوا إلى دعم أي قوة خارجية تمكّنهم من التخلّص منه ومن الويلات التي فرضها عليهم.

ثانيا اقتصاده المنهار أصلا لن يبقى منه أي شيء إذا ما أدّى القصف المحتمل، ولو على منشآت النفط وحدها، إلى تدمير القليل مما توفره من موارد.

ثالثا قوته العسكرية التي لطالما راهنت على الميليشيات، رخيصة الكلفة، لن تقوى على مواجهة أي قوة عسكرية في المنطقة، فما بالك بقوة الولايات المتحدة. صحيح أن قوته تتضمن حشدا من الصواريخ، إلا أن تصفية الحساب معها يظل سهلا، سواء بفضل التكنولوجيا المتاحة، أو بفضل القوة الصاروخية المضادة. إيران تعرف من هذه الناحية، أنها لا تملك الكثير في هذا الملعب، ولا تسيطر على اللعبة.

رابعا إنه نظام معزول في العالم. حتى أقرب حلفائه إليه لن يتمكّنوا من دعمه إذا جدّ الجدّ. والجميع يعرف أنه نظام جرائم وأعمال وحشية ومصدر رئيسي من مصادر الإرهاب. وتأديبه، كلما شنّ عدوانا جديدا، أمر ممكن. بل وبات منذ الساعة ضروريا.

فإذا أخذت من الغوغائيات السابقة مثالا، فإن ردود الفعل المباشرة على مقتل قاسم سليماني، كفت دلالة على أن هذا النظام وميليشياته وأحزابه يواجه، للمرة الأولى، وضعا بائسا إلى درجة أنه لا يملك إلا أن يُذعن للحقائق ويشرب كأس السم ثانية.

إيران لن ترد. ويا ليتها تفعل. فحتى لو تمت تصفية كل قادة ميليشياتها الآخرين، واحدا بعد الآخر، فإنها لن ترد. ليس الآن على الأقل. لأنها تعرف حجم العاقبة، ولأنها تراها كما يرى المرء أصابع يديه، بل ولأنها لا تملك من الأساس ما تردّ به. حتى ليحسن بالزمرة الفاسدة أن تبحث عن مأوى، وأن تكفّ عن الاعتقاد بأن لها قيمة، وأنها يمكن أن تشكّل خطرا، أو أن تكون شيئا أكبر حشو هراء في موازين القوى. تعرف تلك الزمرة، على أي حال، أن الكبار إذا دخلوا الملعب، لم يبق للزعاطيط مكان ولا دور. وأنها نهبت بما يكفي لأن تهرب بما كسبت.

ميليشيات الحشد الشعبي سرعان ما قد تتفكك أيضا. لعل قادتها الصغار ينجون مما ارتكبوا من مظالم. وستظل إيرانهم تتلقى الصفعة تلو الأخرى من دون أن تجرؤ على التحدي. لأنه سيكون انتحارا.

وهذه في الواقع فرصة يحسن أن تُستثمر إلى أقصاها. أولا، بإلغاء النظام الطائفي في العراق، وإسقاط طبقة البيض الفاسد التي ظلت تحكمه وطرد ميليشياته إلى حيثما أتت.

وثانيا بتغيير النظام في لبنان، لكي يفهم الولي الفقيه أن ملعب الإرهاب يضيق عليه، وأن مقتل سليماني هو بالأحرى مقتل لمشروعه القائم على زرع الميليشيات وزعزعة الاستقرار وتفتيت المجتمعات على أسس طائفية وإغراقها بحروب أهلية لكي تتمدد إيران من خلالها. وثالثا لكي يسقط مفهوم "تصدير الثورة"، وتتقلم أظافر الوحشية داخل إيران نفسها.

وهناك سبب مهم لمتابعة هذه الفرصة؛ سبب تفرضه المعرفة بطبيعة النظام الإيراني، بل وبالطبيعة الحقود للمذهب الصفوي نفسه.

هذا النظام، إذا كان لا يستطيع أن يرد، بسبب ضعفه، فإنه يظل يملك من طاقة الحقد ما يكفي لكي يتدبر أعمالا تخريبية وجرائم يُرضي بها غرور الضغينة ونكران الهزيمة.

الحادث الذي دفع السفينة الأميركية "فينسينز" إلى إطلاق صاروخ على طائرة الركاب الإيرانية فوق مياه الخليج في يوليو 1988، لم يكن سوى خطأ مؤسف. إلا أن إيران تدبرت في الأول ديسمبر من العام نفسه تفجير طائرة لوكربي الشهيرة. التهمة ألصقت بالعقيد معمر القذافي، لأسباب تتعلق بالقذافي نفسه، بينما كانت هناك مصالح أخرى تتحرك مع من ارتكب الجريمة بالفعل. كانت هناك مصلحة للولايات المتحدة وبريطانيا، أن تضع القذافي في القفص، فتمت التغطية على المجرم الحقيقي: آية الله الخميني الذي أمر بالقصاص لسقوط طائرة الركاب الإيرانية.

الكثير من التفاصيل الأخرى، كشف عنها كتاب دوغلاس بويد "لوكربي: الحقيقة". ولقد انكشفت الحقيقة تاليا بالفعل.

بريطانيا والولايات المتحدة تعرفان الآن أن إيران هي التي كانت وراء تلك الجريمة. ولكنهما ظلتا تتغاضيان عن إعادة توجيه الاتهام، لأن الملف، بالذي كان في القفص، وبالتعويضات، تم طيّه. هذا مجرد مثال، لما يمكن للحقد أن يفعله.

الحرب مع العراق مثال آخر. لقد قبلت إيران الهزيمة عام 1988. إلا أنها انتظرت أعواما طويلة قبل أن تقوم بتصفية الحساب، ليس مع الرئيس الراحل صدام حسين شخصيا فحسب، بل من كل العراق أيضا، حتى حوّلته إلى مستنقع للفساد والقتل والدمار.

إسماعيل شاه الصفوي نفسه، بعدما هُزم على يد السلطان العثماني سليم الأول في صحراء جالديران شرق الأناضول في أغسطس 1514، هرب إلى أذربيجان، وعاد لينتقم من سليم الأول، في غزوة جديدة إلا أنه مات بحقده مسلولا عام 1520.

إنه نظام قائم، برمّته، على الحقد. وما لم يتم سحق رأس الأفعى، فإن قطع ذيولها لن يترك عليها أثرا سوى أن يزيد السُمّ فيها سُمّا.

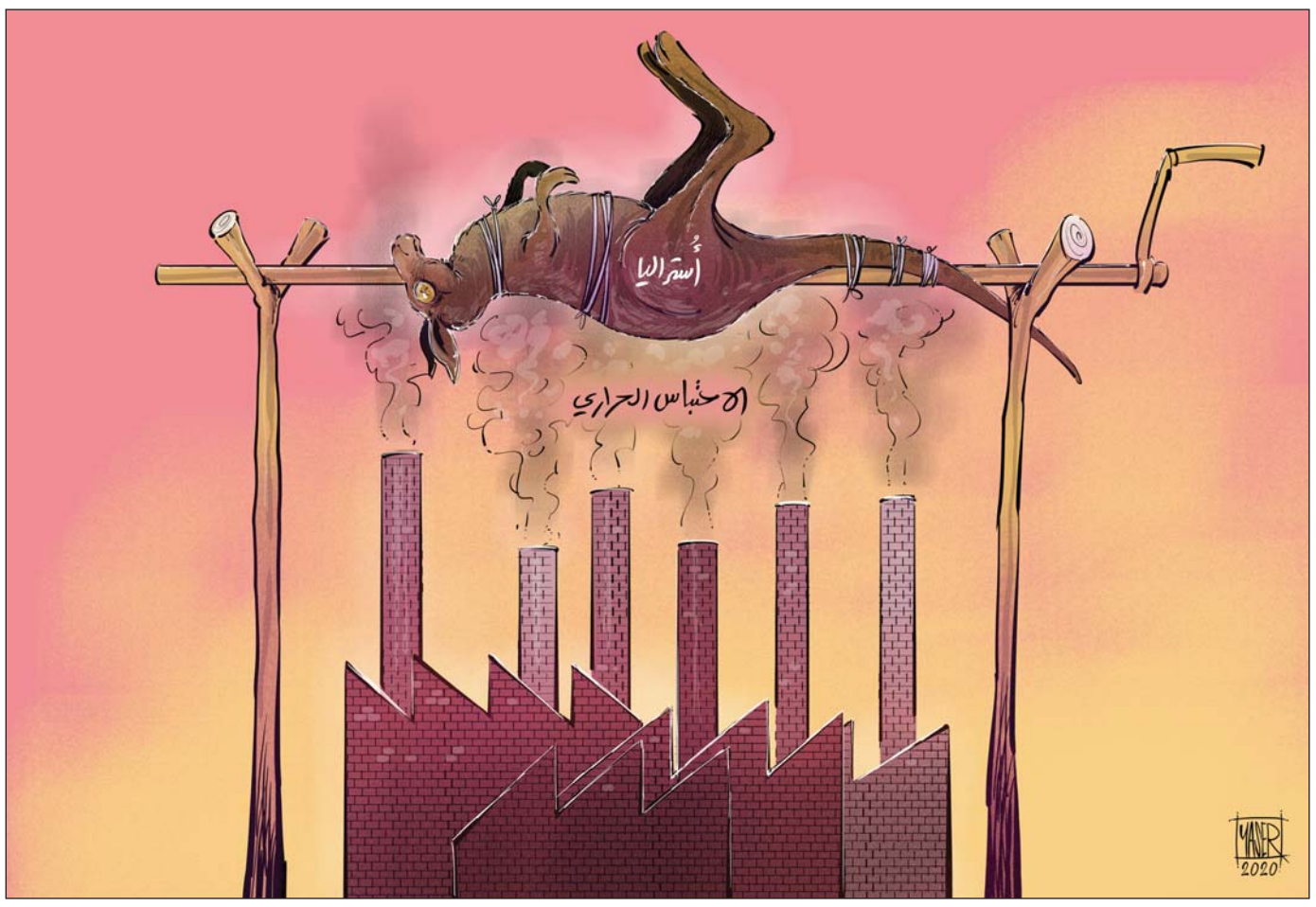

اطمئنان الهدف وحسبة الأميركي

عدلي صادق
كاتب وسياسي فلسطيني

يتوجّب التأمل، في تعقيدات الفصل الأخير من الحدث العراقي الذي يمثّله قتل قاسم سليماني وأبومهدي المهندس وآخرين، في قصف استعراضي أميركي، تعمّد تظهير القدرة على المبادرة والتفوّق العسكري المنذور لتكريس نفوذ العنصر "اليانكي" الأميركي في العالم.

بداية استعاد القصف في ردود أفعاله، مقولة قديمة – جديدة، تؤكد على أن الأميركي ليس له صاحب. فهو يساير طالما أن المسايرة تفيده. ولكي لا يتشكك أحد، في كون الرجل بدأ دوره العسكري، صاحبا للأميركي؛ نُذكّر مستشاري الأمن القومي الأميركي المتعاقبون، أوصوا على تحاشي التعرّض له. لذا كان في المنهجية العسكرية الأميركية، مختلفاً عن طرائد أخرى للطائرات المسيّرة التي ظلت تضرب في اليمن وسوريا والعراق وليبيا. فهو ليس كالبغدادي، مضطرا إلى الاختباء. فلماذا كان الرجل مختلفا؟

يمكن اقتناص الإجابة عن هذا السؤال، من ثنايا تعقيدات العلاقة الأميركية الإيرانية. ففي هذه العلاقة مساحتان، واحدة للتهاجي ولممارسة التعارض في الطموحات والرؤى وتمظهرات القوة، وأخرى اضطرارية للتعاون المسكوت عنه، على النحو الذي يلبّي مصالح الطرفين، دون أن يخفف هذا التعاون من حدّة السجال بين الطرفين. فالمساحة الأولى مخصّصة للتوجهات العامة، بينما المساحة الثانية تتيح اللقاء والتنسيق في التفصيلات. وعلى هذا الصعيد كان البسطاء قبل المختصين، قد أحسوا بوجود مثل هذا التعاون، في الحرب على العراق والإطاحة بصدام حسين. وذاك كان إرثا بُني عليه، وساعد على استئناف التنسيق في مناسبات أخرى، قبل وبعد الإطاحة بصدام.

سليماني، هو الرجل الذي ترأس عملية التنسيق مع الأميركيين ومع البنتاغون، في تشغيل عملية تفكيك، أو محاولة تفكيك، سيطرة طالبان على أفغانستان. في ذلك السياق، كان هو يؤدي وظيفته وفق حسابات الأيديولوجيا، والأميركيون بحسابات الأمن والتواجد العسكري. وكان ذاك على أي حال، تعاون بين طرفين، لا يُلزم كل منهما تخفيف كراهيته للآخر!

وقاسم سليماني هو الذي تولّى في عهد الرئيس باراك أوباما، ضمان التناغم بين ميليشيات الحشد والقوات الأميركية التي جاءت لقتال داعش. ولم لا، والعدو مشترك، ولا يُراد للعنصر البشري الأميركي أن يشتبك على الأرض من المسافة صفر؟ وأيضا لم لا، إن كانت الحكومة العراقية نفسها، آنذاك، هي التي طلبت القوات الأميركية، برضا مرجعياتها الدينية المحلية ومرجعياتها الإيرانية، والرجل تحت إمرة مرجعياته؟

على الرغم من ذلك كان سليماني في ناظر الأميركيين، يستحق القتل على ما سبق من أدوار انتهت بإخراج القوات الأميركية من العراق، أو، بالأحرى، إعادة صياغة وجودها وتأطيره باتفاقية، وإنهاء"شكل" الحكم الذي يتصدره بول بريمر. فبالنسبة للإيرانيين، لا تلائمهم صيغة الحكم التي أطلق عليها الأميركيون "سلطة الائتلاف المؤقتة" واستمرت لمدة سنة وأسبوعين. لذا قاوم العراقيون القوات الأميركية، بصيغة الشعب والحشد الشعبي، لكي لا يتحمل حكام العراق الجدد أوزار قتل أميركيين ساعدوهم على استلام السلطة. وبالطبع أدار الإيرانيون تلك المقاومة، لأن شكل الحكم ينتقص من "شرف" إيران في ساحة لا يختلف اثنان على كون طهران باتت تحدد مسارات السياسة فيها!

في تلك التجربة كان سليماني العقل المدبر لعملية "تطفيش" الأميركيين، ومفاقمة إحساسهم بالخسارة. ومع تداعي الأحداث بعد مغادرة غالبية القوات الأميركية، وظهور دولة داعش وجد الأميركيون سليماني يلائمهم، ولم يخيّب آمالهم على قاعدة العدو المشترك. بعدها أصبح الرجل في ذهن الأميركي يستحق الشيئين: أن يُقتل وألّا يُقتل!

غير أن سليماني من جانبه ظل يتعايش مع الفكرة التي تستبعد استهدافه، لأسباب كثيرة، من بينها أن داعش ومثيلاته لا زالوا موجودين، وأن إسرائيل لم تغامر بتأييد تام لطرف في سوريا لا تأمن شره، وتفضل الطرف الذي تعرفه، وأن إسرائيل تضرب إيران في سوريا، في أي ساعة ولا ترد، فهي محيّدة في ساحة عمل سليماني الأساسية، وأن الأميركي يمكن أن يستعين به لخفض التوتر مع طهران، وهذه نقطة أشار بعض المعلقين إلى وقائع تدل عليها.

لكن حراك الشعب العراقي ضد السلطة، ورفع شعارات تصفية دوائر الفساد والكف عن اعتصار الشعب العراقي لصالح المؤسسة الدينية، وكف يد إيران عن البلاد، خلط الأوراق، وجعل استهداف الأميركيين هدفاً لموالي إيران في ظروف إقليمية مواتية. هنا أصبح اليانكي الأميركي في مأزق. السفارة الأميركية في بغداد رمز "الفضل" الأميركي على السلطة، باتت مهددة والقوات الأميركية مهددة، والسياق يجري لصالح طهران، ثم إن الانتخابات الأميركية باتت قريبة والحزب الديمقراطي يضيق الخناق على ترامب لكي يعزله قبل انتهاء مدته، والنزاع مع الصين، شهد الكثير من النقاط لصالح بكين!

عندئذ وجد ترامب نفسه معنيا بعمل، وإن كان في حدود اغتيال فرد، فإن فيه استعادة لدور السوبر الذي يضرب وقتما شاء وأينما شاء وبالكيفية التي يريدها. لم يكن الوقت وتسارع الأحداث، يتيحان لسليماني معرفة التغيير الذي طرأ على المعادلة، في اللحظة الفاصلة بين اطمئنان الهدف وحسبة الأميركي.

لعنة العراق ستلاحق حكّام طهران

د. ماجد السامرائي
كاتب عراقي

عشرات الأفلام الأميركية التي تنتجها هوليود تظهر فصول درامية وبعضها واقعية لما أطلق عليه لعنة العراق وقبله أفغانستان. تمحورت خطايا الجنود الأميركان في العراق المحتل في قتل كل من يقفون في طريقهم من المدنيين العراقيين أو يسكنون بيتاً يتوقعونه ملاذاً للمقاومة المسلحة. وكانت اعترافات الجنود المتورطين في القتل تكشف عمق الجريمة التي اقترفها الاحتلال في مدن الفلوجة والموصل وأطراف بغداد.

تركت هذه الفواصل الإجرامية آثارها على نفوس المقاتلين الأميركيين بعد عودتهم إلى ديارهم فأصبحت هذه اللعنة تلاحقهم، فتحوّلوا إلى معاقين نفسياً وصلت عند العشرات منهم إلى حالات الانتحار أو الانخراط بتجارة المخدرات للعائدين من أفغانستان. وفي الولايات المتحدة هناك شفافية عالية في كشف الحقائق التاريخية، خصوصا المتعلقة بالاحتلالات الأميركية عبر التسريبات الصحافية أومن خلال الأعمال السينمائية وهي الأكثر تأثيراً في نفوس الأميركيين داخل أميركا أو المتلقين خارجها من العرب والعالم. وسيظل الاحتلال الأميركي للعراق وجرائم سجن أبوغريب وغيرها لعنة تلاحق أولئك المسؤولين الأميركيين و جميع من عاونهم من العراقيين بعد عام 2003 خصوصاً أولئك الذين يدّعون اليوم معاداتهم لها.

ولكن ماذا عن مسلسل الجرائم التي اقترفتها إيران ضد العراقيين منذ الأيام الأولى لعام 2003 برعاية أميركية في تعقّب وقتل قادة الجيش الوطني العراقي وطياريه الذين شاركوا في الحرب العراقية الإيرانية، بين 1980 و1988، وكذلك نُخب العلماء من المهندسين والأطباء والأساتذة، وانتشرت السجون خصوصا في بغداد وفق البرنامج الإيراني للتصفيات بإشراف قادة من الأحزاب وبأدوات الميليشيات المسلحة ومورست فيها أبشع أنواع التعذيب.

دخل فصل جديد من تصفيات عشرات الألوف من المدنيين العراقيين بعد رحيل القوات الأميركية من العراق عام 2011 تحت غطاء الحرب على داعش والاتهام الجائر ضد أبناء المحافظات العربية السنية، بعد تمكّن الميليشيات الموالية لإيران من الهيمنة على المفاصل الأمنية والعسكرية في تلك المحافظات، فتم منع غالبية المواطنين من العودة لديارهم دون أن تتدخل ممثلية هيئة الأمم المتحدة ببغداد.

التطور الأخطر بالجرائم ضد الإنسانية حصل بعد انتفاضة الأول من أكتوبر2019 حيث تم قتل وجرح أكثر من 23 ألف شاب عراقي بأساليب إيرانية مدبرّة بدقة وبخبرات قاسم سليماني، تنفذها الميليشيات التي تدعي انتسابها للحشد الشعبي عبر حلقات إجرامية مبرمجة انتقلت من القنص إلى الاختطاف والقتل البشع، وما زال هذا المسلسل الإجرامي ساريا بتضامن وصمت الحكومة بل وبتنفيذ من بعض أدواتها التي تتقاسم الإجرام مع تلك الميليشيات.

> **يمر العراق بمرحلة تحول كبرى على يد شباب الانتفاضة في آخر فصول المعركة مع إيران وميليشياتها التي فقدت قدرتها على التماسك، فاستغلت قصة الهجوم على السفارة الأميركية**

يمرّ العراق الآن بمرحلة تحوّل كبرى على يد شباب الانتفاضة في آخر فصول المعركة مع إيران ووكلائها من الميليشيات التي فقدت قدرتها على التماسك، فاستغلت قصة الهجوم على السفارة الأميركية ببغداد لتخلط الأوراق وتفكك ساحات الاعتصام تمهيدا لإنهائها، لكن المؤامرة سقطت على يد المنتفضين الذين أعلنوا البراءة مما حصل في المنطقة الخضراء الأسبوع الماضي في استهداف السفارة الأميركية وما تبعها في قتل رأس الاحتلال الإيراني في العراق ولبنان وسوريا واليمن قاسم سليماني.

يبدو أن لعنة العراق تلاحق حكام إيران، وقبل أن تأتي اللحظة التي يراجع فيها سليماني ما اقترفه من جرائم ضد العراقيين والسوريين، أخذ جزاءه العادل. لكن إيران تمتلك جيشاً يحمل ذات عقيدة القتل والتدمير وقد يبرز آخر يزايد على دور سليماني. مع ذلك ستطاردهم جميعا لعنة العراق خصوصا أولئك الذين يعيشون في العراق ويحملون جنسيته.

الرّد عند شباب الانتفاضة الشعبية الذين يقفلون اليوم أبواب عهد دموي تديره إيران ووكلائها في العراق، ليفتحوا أبواب عهد مشرق جديد مخضّب بدمائهم الزكية سينهي هذه الصفحة المؤلمة من تاريخ العراق في ظل الاحتلال الإيراني، عندها ستفتح جميع ملفات قتل العراقيين. وستتكرر ذات لعنة العراق على وكلاء نظام طهران في العراق وقد يأسفون لشبابه وشعبه ويندمون على ما اقترفوه من جرائم تندى لها الإنسانية. لكن اللعنة ستلاحق نظام الملالي في طهران.